



مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTER FOR STUDIES

دراسات إعلامية

الإسلام والقضية الفلسطينية في الإعلام الألماني: رؤية نقدية

د. محمد خلوّق*



16 نوفمبر/تشرين الثاني 2014

الإسلام والقضية الفلسطينية في الإعلام الألماني: رؤية نقدية

ما زال الإرث النازي لألمانيا يؤثر على العلاقات الألمانية-الإسرائيلية، والرأي العام الداخلي، تجاه إسرائيل. ويتجلى ذلك بوضوح في السياسة التحريرية المنحازة لأغلب وسائل الإعلام الألمانية المسموع منها والمرئي والمكتوب، خاصة في تغطيتها الإخبارية لقضايا الشرق الأوسط.

موقف الإعلام الألماني من القضية الفلسطينية

- ♦ شيطنة الفلسطيني وتجريده من كل صفة إنسانية
- ♦ توصيف حركة حماس بالذراع الإرهابية لإيران
- ♦ اختزال صورة الفلسطيني في المقابضات أو مظاهر العنف
- ♦ إصاق تهمة معاداة السامية لمتنقدي السياسات الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين



دوافع انحيازه لإسرائيل

- ♦ عقدة الذنب التي تتحكم بذاكرة المجتمع الألماني تجاه اليهود بسبب الهولوكوست
- ♦ التأثير الذي تحظى به الأقلية اليهودية داخل المجتمع الألماني



أسلوب معالجته للقضايا الإسلامية

- ♦ لا يلتزم الحياد والموضوعية
- ♦ يتخذ موقفاً معادياً ولا يتورع عن تزييف الحقائق
- ♦ الربط بين الحركات الإسلامية والحركات النازية والفاشية

.... إسرائيلياً

- ♦ منبر للقيادات اليهودية
- ♦ يتغافل عن تطرف السياسة الإسرائيلية
- ♦ تصوير الإسرائيلي كضحية وسط حركات إرهابية
- ♦ تسويق إسرائيل كدولة ديمقراطية وحيدة في المنطقة

(الجزيرة)

ملخص

تحاول الدراسة استقراء مضامين ومحددات اتجاهات التغطية الإخبارية للإسلام عمومًا والقضية الفلسطينية خصوصًا في وسائل الإعلام الغربية (نموذج ألمانيا)؛ حيث تخضع وسائل الإعلام غالبًا لإكراهات محدّدة؛ بعضها يرتبط بمصالح اقتصادية وسياسية، وأخرى ترتبط بسرديات تاريخية وثقافية ودينية؛ وتظهر هذه الإكراهات السياسية منها على الخصوص- في وسائل الإعلام على اختلافها، لاسيما إذا تعلّق الأمر بالإسلام والمسلمين، وبشكل رئيس بالقضية الفلسطينية؛ فالإعلام الغربي لا يعمد فقط إلى شيطنة الآخر المسلم عبر استراتيجيات متعدّدة وطويلة الأمد، تعتمد دائمًا نشر صورة سلبية ومُفَرّزة عن الإسلام؛ تبدأ من مبالغاته في ترصّد "الجوانب السلبية" في حياة المهاجرين من أصول إسلامية ونشرها وتحريض الساسة عليهم، وتنتهي بالقضية الفلسطينية وتزييف الأحداث والوقائع؛ بل إنه نجح في صناعة رأي عام معادٍ إلى حدّ كبير لكل شيء يمثّل للإسلام بصلة والقضايا العربية العادلة.

وتبحث الدراسة واقع انتشار جرائد ومجلات، مثل أسبوعية دير شبيغل، وجريدة بيلد تسايتونج، وقنوات تليفزيونية كقناة ARD و ZDF في ألمانيا، وعلاقة ذلك بظاهرة الإسلاموفوبيا والصور النمطية عن الإسلام والمسلمين، ويتضمن البحث نتائج دراسة استقرائية أنجزها الباحث عن المشهد الإعلامي الألماني خلال الحرب الإسرائيلية على غزة في 8 من يوليو/تموز 2014؛ تُبيّن عبر أرقام وصور العلاقة بين حجم التوزيع وانتشار وسائل إعلامية وبين الصورة السلبية تجاه القضية الفلسطينية، وهي صورة لا تنفصل عن الصور النمطية السائدة عن الإسلام والمسلمين، وتعتمد الدراسة المنهج الوصفي-التحليلي، وتقوم في مبحثها الأول بوصف المشهد الإعلامي في ألمانيا واتجاهاته؛ خصوصًا السياسية منها، ثم تنتقل في المبحث الثاني إلى تحليل المعطيات تحليلًا نقديًا يُسلط الضوء على ميكانيزمات صناعة الرأي داخل المجتمع الألماني تجاه القضايا العربية والإسلامية.

وتخلص إلى أن الإعلام الألماني بوسائله وتوجهاته المختلفة لا يلتزم الحياد والموضوعية فيما يتعلق بالقضايا الإسلامية عمومًا والعربية خصوصًا؛ بل يتخذ موقفًا معاديًا حين يتعلّق الأمر بالقضية الفلسطينية، ولا يتورع عن تزييف الحقائق وصور الصراع من أجل تبرير الحرب الإسرائيلية وتسويقها كحق مشروع في الدفاع عن النفس؛ إذ يخضع هذا الإعلام لإكراهات سياسية وثقافية وتاريخية؛ لأن عقدة الذنب تجاه اليهود بسبب ما عُرف بـ"الهولوكوست"، ما زالت تتحكم في الموقف الألماني سياسيًا وإعلاميًا من الصراع في الشرق الأوسط.

مقدمة

تؤدي وسائل الاتصال الجماهيري -أي قنوات وسائل الإعلام وشبكة الإنترنت- دورًا محوريًا في تشكيل الرأي العام في الغرب، وتؤثر بشكل كبير -أيضًا- على سياساته الخارجية منها والداخلية؛ بسبب قدرتها على الوصول والتأثير في جمهور واسع؛ حتى إذا لم تكن وسائل الإعلام في الغرب خاضعة بشكل تام للسلطة السياسية؛ تنفذ توجهاتها وسياساتها، إلا أن ذلك لا يعني أنها مستقلة عن كل تأثير سياسي؛ ويظهر ذلك بجملة في التغطية المنحازة للرواية الرسمية الإسرائيلية فيما يتعلق بصراع الشرق الأوسط، الأمر ذاته نلمسه في الصورة السلبية التي ينشرها الإعلام في الغرب عن الإسلام والمسلمين، وهو ما ينعكس سلبيًا على وضعية الجاليات المسلمة في الغرب، وفي هذا السياق أصدرت منظمة العفو الدولية عام 2012 تقريرًا عن التمييز الذي يتعرض له مسلمو أوروبا، والمعايير المزدوجة التي يُعاملون بها بسبب دينهم؛ خصوصًا بعد الحادي عشر من سبتمبر/أيلول والوضع الاجتماعي السيئ؛ إذ يعاني المسلمون من التمييز في سوق العمل وفي المدارس، وكلما كان الإنسان الفلسطيني أو المسلم موضوعًا للنقاش في الإعلام الألماني أصبح الرأي مقدمًا على الخبر والمعلومة؛ يخاطب الانفعالات أكثر مما يخاطب العقول، ويُنفذ السياسات أكثر مما يصف حقائق. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه لا يمكن تحليل صورة القضية الفلسطينية في الإعلام الألماني بمعزل عن تحليل موقف هذا الإعلام من الإسلام والمسلمين وعن الصورة التي ينشرها عنهم؛ إذ يتم غالبًا تصوير الفلسطينيين وحركات المقاومة باعتبارها حركات إسلامية متطرفة معادية للغرب وللديمقراطية، وسنبدأ أولاً بعرض موقف الإعلام الألماني من الإسلام والمسلمين قبل الانتقال إلى دراسة موقفه من القضية الفلسطينية.

1. التوجهات الأيديولوجية للإعلام الألماني ودورها في التأثير على صناعة الرأي العام

أظهرت دراسة للصحف الألمانية المعروفة في الفترة ما بين 1940 و1990 أن نصف المقالات حول الإسلام ترتبط بالعنف؛ وذلك في حين تربط 10% من تلك المقالات الإسلام بالممارسات التي لها علاقة بالتقاليد مثل جرائم الشرف. إن أغلبية التقارير والمقالات عن شمال إفريقيا والشرق الأوسط تؤكد هذه الصورة النمطية، وتُظهر بعض الدراسات أن صورة الإسلام قد ازدادت سوءًا في القناتين الأولى والثانية في التلفزيون الألماني بعد عمليات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول 2001؛ فأكثر من 80% من كل البرامج والتقارير حول الإسلام في قنوات الخدمة العامة تغلب عليها المواضيع السلبية؛ مثل: الإرهاب، والنزاعات الدموية والأصولية، ومشاكل الاندماج، وخروقات حقوق الإنسان. إن وسائل الإعلام الألمانية تهتم أكثر وبشكل مكثف بالعمليات الانتحارية، ونادرًا ما تتناول النماذج الإيجابية والنضالات السلمية، كما أن التاريخ لصورة الإسلام في وسائل الإعلام الألمانية يُظهر قلة الاهتمام بالإسلام كدين وثقافة وحضارة، ويتعدد أشكال التعبير الاجتماعي داخل المجتمعات الإسلامية، ويركز الاهتمام الإعلامي بالإسلام في ألمانيا بشكل كبير على الوجوه الراديكالية لهذا الدين؛ الذي يُراد له أن يمثل الأطروحة الأيديولوجية الراديكالية المعارضة للمجتمع الغربي، ومرة أخرى يظهر لنا كيف تمت إعادة إنتاج أطروحة صمويل هنتنغتون عن صراع الحضارات إعلاميًا، كما أكد ذلك الباحث الألماني كاي حافظ (1).

أ- صورة الإسلام والمسلمين في الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية في ألمانيا

إن نظرة إلى أهم الصحف الألمانية اليومية كما يظهر ذلك من الجدول رقم (1) تبين أن نسبة توزيع الصحف اليومية في ألمانيا ترتفع نسبيًا حين يتعلق الأمر بصحف تنتقد أو تهاجم الإسلام؛ بينما الصحف التي تتبنى موقفًا متضامنًا أو محايدًا تقل نسبة مبيعاتها بكثير؛ مثل: فرانكفورتا روندشاو التي كانت مهددة بالإفلاس، والطاغس تسابتونغ ذات الميول اليسارية؛ إن

الصحف التي تنشر الإسلاموفوبيا وتسوّق لها تخاطب اللاوعي الجمعي للمجتمع الألماني، المسكون بخوف مرضي من الإسلام والمسلمين؛ فهي تعكس كثيرًا أحكامه المسبقة وتؤكدّها في الآن نفسه؛ التي تجد بعض روافدها في تاريخ الصراع بين أوروبا والإمبراطورية العثمانية(2).

جدول رقم 1 يوضح موقف الصحف اليومية الألمانية من الإسلام

الموقف من الإسلام	الاتجاه السياسي	التوزيع في 2014	تاريخ التأسيس	الصحيفة
نقدي	محافظ	306.779	1949	FAZ
محايد	يسار وسط	397.033	1945	SZ
محايد	يسار ليبرالي	87.136	1945	FR
(يناير/كانون الثاني 2013)				
إسلاموفوبيا	محافظ	208.045	1946	Welt
إسلاموفوبيا	يمين محافظ	2.444.783	1952	Bild
محايد	يسار	58.144	1978	taz
محايد	ليبرالي	116.957	1945	BZ
محايد	يسار ليبرالي	113.855	1945	Tagesspiegel
محايد	شيوعي	31.316	1946	Neues Deutschland

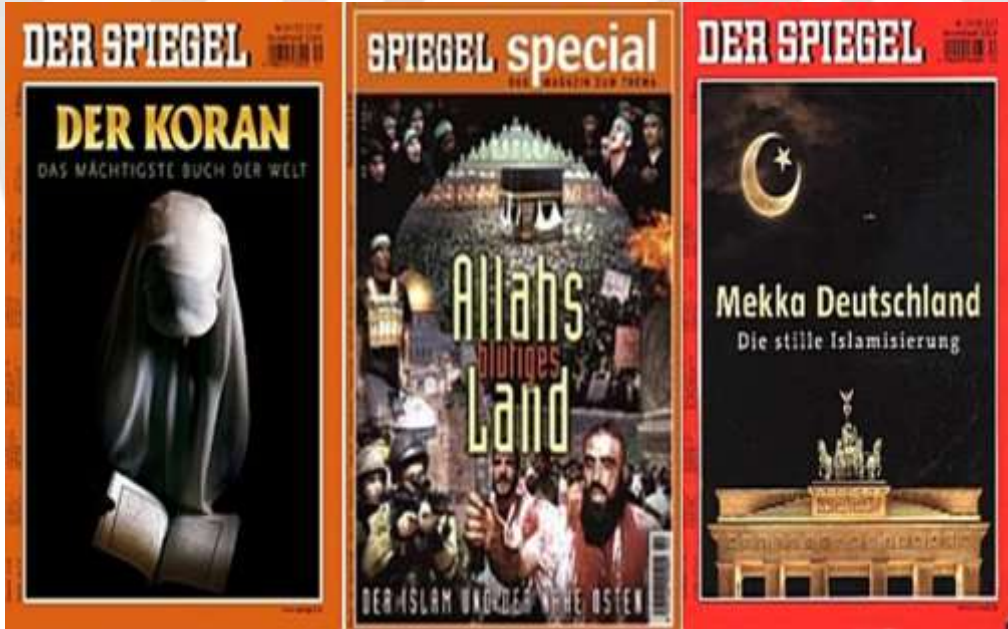
إن الصورة ذاتها تتكرر لدى المجلات الأسبوعية فيما يتعلق بالتقارير الصحفية المرتبطة بموضوع الإسلام؛ ولكن بخلاف الصحف اليومية فإن المجلات التي تنشر الإسلاموفوبيا لا تحظى بحضور الصحف اليومية الكبرى نفسها؛ لأنها مجلات تخاطب في مجملها النخبة، ولا تستطيع اعتماد الاستراتيجيات واللغة الشعبوية؛ التي تسود الصحف الصفراء؛ لكن انتشار هذا النقد للإسلام يؤكد أن هناك سياسة معتمدة غرضها محاصرة المسلمين وتشويه دينهم، إن الأمر يتعلق ببروبغندا إعلامية منظمة؛ فالخط التحريري للأسبوعيات لا يختلف بشكل عام عن اليوميات فيما يتعلق بالموقف من الإسلام وقضاياها كما يبيّن الجدول التالي:

جدول رقم 2 يبين موقف المجلات الأسبوعية الألمانية من الإسلام

الموقف من الإسلام	الاتجاه السياسي	التوزيع في 2014	تاريخ التأسيس	المجلة
نقدي	يسار ليبرالي	874.111	1947	Spiegel
نقدي	يمين محافظ	498.022	1993	Focus
نقدي	يسار ليبرالي	756.659	1948	Stern
محايد	ليبرالي	503.970	1946	Zeit
محايد	ليبرالي	8.925	1952	Das Parlament
إسلاموفوبيا	يمين قومي	22.688	1986	JungeFreiheit
نقدي	يسار	11.585	1997	Jungle World
(يناير/كانون الثاني 2011)				
محايد	يسار ليبرالي	17.339	1990	Der Freitag

وغالبًا ما تركز المجلات الأسبوعية في تمرير خطابها المعادي للإسلام على توظيف الصورة توظيفاً أيديولوجياً، ولا تتوانى في حديثها عن الإسلام والمسلمين عن اللجوء إلى التضليل والتزييف؛ وهو ما يظهر -أيضاً- من خلال أغلفتها الخارجية وعناوين هذه الأغلفة التي تعتمد الاستفزاز والإثارة منهجاً؛ وفيما يلي صور ثلاثة أعداد من مجلة شبيغل الأسبوعية الشهيرة، التي كانت إلى عهد قريب تتميز بخطها التحريري الرفيع والمحايد؛ وتظهر في غلاف النموذج الأول جهة اليمين صورة لبوابة براندنبورغ التاريخية؛ التي ترمز إلى النظام السياسي الألماني، وتعد أحد المعالم الأثرية الكبيرة في الثقافة الألمانية، وقد كُتبت فوقها جملة: "مكة ألمانيا: الأسلمة الصامتة"، ورسم فوق الجملة هلال ونجمة؛ وذلك باعتبارهما رمزاً من رموز الدولة العثمانية. ومن شأن غلاف كهذا أن يثير فزع الألمان، ويعمق من مدى الأحكام المسبقة التي تنتشر في الأوساط الألمانية الشعبية تجاه المهاجرين من أصول مسلمة. أما صورة الغلاف الثاني فهي تريد إظهار الإسلام كدين عنيف ودموي، أتباعه إرهابيون فلسطينيون؛ وذلك في حين تُظهر صورة الغلاف الثالث امرأة محجبة مطأطئة رأسها كتعبير عن قمع المرأة في ظل المجتمعات الإسلامية، ومن فوقها مباشرة كُتبت جملة: "القرآن: أقوى كتاب في العالم". وتعني هذه الجملة -أيضاً- أن قمع المرأة مرتبط بكتاب المسلمين؛ الذي هو القرآن، وأنه كتاب ذكوري يؤسس لمجتمع أبوي؛ يؤبّد التمييز بين الجنسين؛ وهي الأحكام المسبقة نفسها التي يتم ترويجها حتى من قِبَل مَنْ يسمُّون أنفسهم مثقفين داخل المجتمع الألماني؛ وعلى رأسهم هانز ماغنوس انسنسبيرغر، والفيلسوف بيتر سلوتردايك؛ اللذان يحظيان بحضور إعلامي قوي؛ فقد شككا في إمكانية المزوجة بين الإسلام والديمقراطية(3)، وكان الفيلسوف النقدي يورغن هابرماس قد أوضح أن التليفزيون -مثلاً- نجح في تشويه صورة المثقف؛ الذي أضحى "ظهوره" أهم من "المضامين" التي يُدافع عنها؛ حتى إنه استمرراً للعبة، وبدأ يخلط بين دوره المتمثل في "التأثير على الرأي العام" وفعل السلطة؛ فلم يعد بالإمكان في البرامج التليفزيونية التمييز بين السياسي والخبير من جهة، وبين المثقف من جهة ثانية(4).

الصورة رقم 1: مجلة دير شبيغل



أما صحيفة بيلد تسابتونغ اليومية الواسعة الانتشار والمعروفة بعداؤها المستحکم للإسلام والمسلمين، فلم تتوانَ بدورها عن التوظيف الأيديولوجي المضلل للصورة والخبر؛ كما درجت على فعل ذلك منذ تأسيسها سنة 1952؛ ففي معرض تغطيتها للحرب الإسرائيلية الأخيرة على غزة (8 من يوليو/تموز 2014)، نشرت الصورة التالية (انظر الصورة رقم 2)؛ التي تُظهر صوراً شخصية لمجموعة من الجنود الإسرائيليين قُتلوا خلال محاولتهم اجتياح قطاع غزة، وعنوانها بجملة: "صور

الضحايا"؛ وهو عنوان يلخص -لا ريب وفي وضوح- التزييف الإعلامي في ألمانيا لحقيقة الصراع في الشرق الأوسط؛ فحوّلت الجاني إلى ضحية والضحية إلى جان.

الصورة رقم 2: صحيفة بيلد تسايونغ



تزييف الحقائق هذا ينقل إلى الجمهور الألماني وجهة نظر عن الأحداث تُحَمِّل المقاومة الفلسطينية المسؤولية عن المآسي التي يعيشها الشعب الفلسطيني، وتظهر الصورة رقم (3) استعراضاً عسكرياً لحماس، وتعنونه الصحيفة بالتالي: "حماس تستعمل المدنيين كدروع بشرية"، ويظهر مرة أخرى هنا -وبشكل لا يدع مجالاً للشك- القلب المتعمد للحقائق؛ الذي لا يتورّع عن تحميل الصورة مضامين لا تعكسها؛ غرضها الأساسي نزع شرعية المقاومة، واعتبار ما "تقوم به" حماس خرقاً لحقوق الإنسان الفلسطيني قبل الإسرائيلي.

الصورة رقم 3: صحيفة بيلد تسايونغ



أما الصورة رقم (4) فتصل بالتزييف إلى أبعد مدى؛ فقد عنونتها صحيفة بيلد تسايونغ بعنوان لا علاقة له بمضمونها وهو: "أول ضحية مدنية لصواريخ حماس"، غير أن الصورة هي لقطاع غزة، والأكثر من ذلك تُعَلِّق الصحيفة على هذه الصورة بالجملة التالية: "قصف صاروخي من غزة على إسرائيل"، في حين أن أعمدة الدخان المتصاعدة تعكس آثار قصف إسرائيلي على غزة.

الصورة رقم 4: صحيفة بيلد تسابتونغ



أما الصورة رقم (5) فقد عنونها بيلد تسابتونغ بعنوان يخالف مضمونها، ويبالغ في تصوير الخطر الفلسطيني العسكري على إسرائيل: "إسرائيل تحت وابل من الصواريخ"؛ لكن الصورة لا تظهر إلا صاروخين، ولا يمكن تحديد مصدرهما، ومن أجل تبرير العمليات العسكرية -كما كتب نوام تشومسكي- يتم دائماً استغلال مثل هذه الصور والتلاعب بها؛ فالأساسي -كما يقول في هذا السياق- هو أن يستنتج المشاهد بأن التدخل العسكري وحده الكفيل بتصحيح الوضع(5). لكن ما يجب -أيضاً- إضافته إلى كلام تشومسكي هو أن هذا التلاعب بالصور وتزييف حقيقتها يهدف -علاوة على إضفاء الشرعية على العمل العسكري- إلى تصويره كنوع من الدفاع عن النفس.

الصورة رقم 5: صحيفة بيلد تسابتونغ



ب- القضية الفلسطينية في القنوات التلفزيونية الألمانية

وإلى جانب وسائل الإعلام المقروءة تؤدي وسائل الإعلام المرئية دوراً كبيراً في تشكيل الرأي العام في ألمانيا، ويتوجب التمييز هنا بين قنوات الخدمة العامة؛ التي تخضع لمراقبة المجتمع المدني، أو ما يُعرف بالمجالس السمعية البصرية وبين القنوات الخاصة، وفي دراسة لمركز الإعلام الجديد البافاري سنة 2013 ترى أن خمساً من المجموعات الإعلامية الكبرى تتحكم في توجيه الرأي العام بنسبة تتجاوز 60%، ويؤدي الإعلام المرئي في هذا السياق الدور الأكبر بنسبة 37% مقارنة بشبكة الإنترنت؛ التي يرتفع تأثيرها؛ ولكن دون أن يتجاوز 17,05%، والصحف اليومية التي لا تتجاوز حصتها من الرأي

العام 22% (6)؛ وبلغت أخرى: إن الصورة التلفزيونية تؤدي الدور الأكبر في التأثير على الرأي العام؛ سواء كانت الصور واقعية أم تم التلاعب بها أو استعمالها في سياق آخر غير سياقها، وأكبر مثال على ذلك ما قام به الإعلام الغربي عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، حين بثت قنواته صوراً للفلسطينيين يحتفلون في غزة؛ وهي صور تعود إلى مناسبة أخرى. وكما يقول غرهارد باول المؤرخ وعالم الصورة من جامعة فلينسبورغ: إنه كلما كانت الصور بعيدة عن سياقها الأصلي يصعب معرفة مصدرها الحقيقي، ويسهل استغلالها. حتى إذا انتهى الصراع تظل تأثيراتها ماثلة في لاوعي المتلقي؛ وذلك بغض النظر عن صحتها وصحة مصدرها (7).

وترى دراسة نشرها المركز الفيدرالي للتكوين السياسي في ألمانيا أن الإسرائيلي يحظى بتغطية إعلامية شاملة تشمل كل مناحي حياته؛ بينما تختزل وسائل الإعلام هذه صورة الفلسطيني في أمرين: مفاوضات السلام، أو مظاهر العنف. وهكذا يتم تكريس صورة في اللاوعي الجماهيري تنظر إلى الإسرائيلي كجزء من الثقافة الغربية وقيمها؛ بينما تتم شيطنة الفلسطيني وتحميله المسؤولية عن فشل المفاوضات واندلاع أعمال العنف في المنطقة. وتقول الدراسة نفسها: إنه غالباً ما يتم تصوير الإسرائيليين كضحية حتى قبل اندلاع الانتفاضة الأولى مقارنة بالفلسطينيين؛ بل إن الأمر يتجاوز ذلك؛ إذ يهتم الإعلام الألماني بالأسرائيلي في الحالات العادية أيضاً، في حين لا يُعبر انتباهاً للفلسطينيين إلا في حالة الحرب (8).

ويلاحظ هنا من خلال المعطيات الواردة في الجدول رقم (3) الاتجاه المعادي نفسه للإسلام، ولل قضية الفلسطينية، الذي وقفنا عليه لدى وسائل الإعلام المكتوبة، ويعود ذلك في جانب منه إلى غياب ممثلين للجاليات المسلمة في المجالس السمعية البصرية؛ التي تسهر على مراقبة محتويات البرامج، وتساهم في العمل على تقديم صورة موضوعية عن الصراع في الشرق الأوسط للمشاهد الألماني. ويرتبط ارتفاع نسبة المشاهدة في سنة 2013 -على سبيل المثال لا الحصر- بكثرة البرامج المعادية للإسلام وبالصراع في الشرق الأوسط، ويظهر الجدول الموقف المنحاز للقنوات الألمانية ضد قضية العرب والمسلمين الأولى.

جدول رقم 3 يوضح موقف قنوات الخدمة العامة من القضية الفلسطينية

القناة	سنة البث	نسبة المشاهدة في 2013	الاتجاه السياسي	الموقف من القضية الفلسطينية
ARD	1950	25.1%	يسار	محايد
ZDF	1963	12.8%	يمين	نقدي
Phoenix	1997	1.1%	يسار ليبرالي	محايد
3Sat	1984	1.1%	محافظ	نقدي
arte	1992	0.9%	يسار ليبرالي	محايد

وعلى غرار القنوات العامة تحفل القنوات الخاصة بالتقارير الصحفية التي تعتمد الإثارة؛ مثل تلك المتعلقة بجرائم الشرف والزواج القسري والإرهاب وتطبيق الحدود؛ وذلك لترتيب بين الإسلام والعنف، وتساهم في نشر صور مشوهة ومغلوبة عن القضية الفلسطينية داخل المجتمع الألماني؛ وفي المقابل تعمد وسائل الإعلام الألمانية إلى تصوير الإسرائيلي كضحية، وتسويق إسرائيل كدولة ديمقراطية وحيدة في المنطقة، وكجبهة متقدمة للحضارة الغربية في محيط تسوده أنظمة استبدادية وحركات إرهابية، كما أن هذا الإعلام يزخر بالبرامج الوثائقية والأفلام والبرامج الحوارية التي توظف الهولوكست والجرائم النازية ضد اليهود خلال الحرب العالمية الثانية توظيفاً سياسياً، لا يتوانى عن إلصاق تهمة معاداة السامية بكل مَنْ ينجَزْراً على انتقاد السياسات الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين.

جدول رقم 4 يبين موقف القنوات الخاصة من القضية الفلسطينية

القناة	سنة البث	نسبة المشاهدة في 2013	الاتجاه السياسي	الموقف من القضية الفلسطينية
RTL	1984	11.3%	يمين وسط	منحاز
RTL II	1993	4.2%	يمين وسط	منحاز
Super RTL	1995	1.9%	يمين وسط	منحاز
PRO 7	1989	5.7%	يمين وسط	منحاز
Sat 1	1984	8.2%	يمين وسط	منحاز
N24	2000	1%	ليبرالي	منحاز
NTV	1992	0.9%	ليبرالي	منحاز
Tele 5	1988	0.9%	ليبرالي	منحاز
VOX	1993	5.6%	يمين وسط	منحاز

2. الإعلام الألماني: الإكراهات التاريخية والسياسية والثقافية

ما زال الإرث النازي لألمانيا يؤثر على العلاقات الألمانية-الإسرائيلية، والرأي العام الداخلي تجاه إسرائيل؛ ويتجلى ذلك بوضوح في السياسة التحريرية لأغلب وسائل الإعلام الألمانية المسموع منها والمرئي والمكتوب، إن عقدة الذنب التي تستحکم بالذاكرة الجمعية للمجتمع الألماني من جهة، والتأثير الذي تحظى به الأقلية اليهودية في شتى المجالات داخل المجتمع الألماني من جهة أخرى، يساهمان إلى حد كبير في تزييف الصورة التي ينقلها الإعلام الألماني عن الصراع في الشرق الأوسط، وفي هذا السياق أشارت الصحفية بيتينا ماركس -التي تعمل مراسلة لقناة ARD في تل أبيب في محاضرة لها بعنوان: "مع إسرائيل أو ضد إسرائيل" (9)- إلى أنه يتم النظر إلى تقارير المراسلين الأجانب حول إسرائيل - وخصوصاً من الجهات الرسمية- على أنها معادية للدولة العبرية، التي تتهمهم بالانحياز إلى الفلسطينيين وعدم تفهم الوضع الإسرائيلي، وتزداد الضغوط الإسرائيلية لاسيما إذا تعلق الأمر بمراسلين ألمان، فقد نعت داني سيمين -المسؤول الإعلامي داخل الحكومة الإسرائيلية- مراسل جريدة فرانكفورتر ألمانيه بورغ بريمر بأفدع الصفات، ورفضت السلطات الإسرائيلية تمديد إقامته، على الرغم من أنه يعمل مراسلاً لصالح جريدة متعاطفة مع إسرائيل. وتستطرد بيتينا ماركس قائلة: إنه حتى لو كان الماضي النازي لا يؤثر في عملها اليومي بشكل مباشر فإنها كألمانية لا تستطيع أن تتأى بفكرها عن هذا الماضي؛ فالصحفي الألماني مطالب أكثر من غيره بتوخي الحذر، وخصوصاً فيما يتعلق بتعامله مع الناجين من الهولوكست وبالصراع في الشرق الأوسط. وتتابع قائلة: "إذا ما كتبت تعليقاً أو أحدًا من زملائي حول السياسة الإسرائيلية نتعرض نحن والمؤسسة التي نعمل فيها لموجة من الاحتجاجات والشتائم". لكن في مقابل هذا الرأي النقدي لبيتينا ماركس، وهو رأي الأقلية داخل المنظومة الإعلامية الألمانية؛ فإن الرأي الغالب هو المساند والمتعصب لإسرائيل، وهو الذي يعبر عنه مراسل قناة NTV في الشرق الأوسط أولريش فيزام قائلاً: إن اليهود استقوا العبرة من المحرقة، وهم لن يسمحوا لأنفسهم بأن يكونوا ضحية مرة أخرى للقانون الدولي؛ لأن هذا القانون الدولي لا يملك صلاحية بالنسبة إلى إسرائيل ولم يعد ملزماً لها(10).

وقد درجت وسائل الإعلام الألمانية على توفير حيز كبير للإسرائيليين والمتضامنين مع إسرائيل في برامجها؛ وذلك في وقت يغيب فيه الصوت العربي والمسلم، أو حتى الصوت النقدي من داخل المجتمع الألماني؛ فمجلة فوكوس الأسبوعية أو يومية زود دويتشه تقسح المجال لرئيس المجلس الأعلى لليهود غراومان ليصف حماس بأنها ليست أكثر من ذراع إرهابية لإيران؛ مطالباً الحكومة الألمانية بقطع العلاقات الدبلوماسية مع طهران؛ وذلك في حين لا يحظى المسلمون بأي فرصة للتعبير فيها عن موقفهم ورؤيتهم لواقع الصراع. أما جريدة دي فيلت المعادية للإسلام والمسلمين فإنها تحاول إقناع الرأي العام الألماني بأن حماس تبالغ في تقدير عدد الضحايا الفلسطينيين، وتتوسل في ذلك بنشر عناوين مضللة. وتجرد وسائل

الإعلام الألمانية الفلسطيني من كل صفة إنسانية، وتعمل على شيطنته؛ وذلك في حين تتغافل عن تطرف السياسة الإسرائيلية وتراجعها عن المبادئ الديمقراطية. وترى أورزولا غوتس من وكالة الأنباء الألمانية DPA أنه حتى المرسلين المكلفين بتغطية الأحداث في الشرق الأوسط يصعب عليهم فهم كل الفاعلين في المنطقة؛ لأنهم يتبنون في الواقع الموقف الإسرائيلي، فلا أحد من هؤلاء المرسلين يعيش داخل المناطق الفلسطينية؛ وذلك في حين يمكنهم التحاور في يسر مع الإسرائيليين؛ لأن أغلبهم يتقن اللغة الإنجليزية، وهو أمر لا يتوفر إلا نادراً لدى الجهة الفلسطينية. وفي دراسة أنجزتها جامعة بار آيان الإسرائيلية ونشرتها صحيفة هآرتز أفادت أن 91% من المرسلين يرون إسرائيل بصورة حسنة؛ بينما في المقابل 41% منهم يرون الدول العربية بالصورة الحسنة نفسها، وفي الدراسة ذاتها تبين أن 57% لديهم معلومات جيدة عن الديانة اليهودية، وفي المقابل 10% فقط ممن طُبِّقت عليهم الدراسة أجابوا بفهمهم الجيد للدين الإسلامي؛ أما عن عامل اللغة فإن 54% من المرسلين يتقنون اللغة العبرية بطلاقة، أما عن اللغة العربية فهناك 6% فقط من المرسلين يتقنونها بطلاقة(11). ويتوجب هنا تحميل المسؤولية عن هذا الوضع المختل للدول العربية؛ خصوصاً التي لا تبذل أدنى جهد في التواصل مع هؤلاء الإعلاميين الغربيين، ولا في التعريف بعدالة الموقف العربي وشرعية المقاومة. أما نورمن بيش من مؤسسة دراسات السلام فيري أن وسائل الإعلام الألمانية في معرض تعليقها على الأحداث في فلسطين تكتفي بالرواية الرسمية الإسرائيلية، ولا تكثر حتى للتقارير الأمامية(12).

وتؤكد هذه التصريحات عدم قدرة الإعلام الألماني على اتخاذ موقف محايد تجاه مجريات الأحداث في الشرق الأوسط؛ إذ لا يتمتع باستقلالية حقيقية؛ وإنما يخضع لأجندات داخلية وخارجية؛ وذلك على الأقل فيما يخص القضايا العربية-الإسلامية، ويظهر هذا الأمر في نوعية البرامج والضيوف الذين يتم استدعاؤهم للمشاركة فيها، فغالباً ما يمثل هؤلاء الضيوف توجهاً واحداً يوافق الخط التحريري للقناة؛ الذي يكون في الأغلب الأعم معادياً للقضايا العربية-الإسلامية؛ وهذا يؤكد ما ذهب إليه عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو في كتاب عن التلفزيون؛ إذ كتب يقول: "إن عالم ضيوف التلفزيون هو عالم مغلق، يعرف فيه كل ضيف صاحبه ويقوم على تأكيد الرأي السائد"(13).

ويؤكد كاي حافظ -أحد المتخصصين في الدراسات الإعلامية في ألمانيا- أن هذا الانحياز إلى الرواية الإسرائيلية راجع بالأساس إلى تبني وسائل الإعلام الألمانية للموقف الرسمي الأميركي، وتأثرها بما ينشر في الولايات المتحدة الأميركية؛ بل إن مؤسسة سبرينغر -التي تُصدر كبريات الصحف والمجلات الألمانية كـبيلد تسايتونج ودي فيلت- تعتبر أنه على الدولة الألمانية تبني الموقف الإسرائيلي، وعدم الاكتراث بردة الفعل العربية. ويرجع لها الفضل في اعتراف ألمانيا بإسرائيل سنة 1965، كما أن هذه المؤسسة تفرض على كل العاملين لديها تبني الموقف الإسرائيلي فيما يتعلق بالصراع في الشرق الأوسط؛ فـرئيس هذه المؤسسة أكسل سبرينغر يدعو وسائل الإعلام التابعة لمؤسسته إلى تصوير كل من يتحفظ على سياسة إسرائيل، أو يساوي بين مصالح الدولة اليهودية والمعسكر العربي كمتطرف يميني. إنه يرى أن كل نقد موجه إلى السياسة الإسرائيلية يصب في مصلحة معاداة السامية واليمين المتطرف؛ علاوة على ذلك فإن وسائل الإعلام ذات التوجه اليساري؛- التي قامت كردة فعل على احتكار مؤسسة سبرينغر للمجال الإعلامي في الساحة الألمانية، كـجريدة طاغس تسايتونج أو مجلة كونكريت السياسية الشهرية- تتبنى هي الأخرى إجمالاً الموقف الإسرائيلي(14).

ويحاول الإعلام -الألماني خصوصاً والغربي عموماً- الربط دائماً بين الحركات الإسلامية والحركات النازية والفاشية أو الشيوعية؛ التي عرفها القرن العشرون، واعتبار الحركة الإسلامية والمقاومة منها على وجه التحديد حركة توتاليتارية، تحثي بالموت وتقديس الإرهاب؛ فهذا انسنسرغر نجم الثقافة الألمانية المعاصرة يصف المقاوم الفلسطيني بـ"الخاسر الراديكالي"؛ الذي يهدف إلى التدمير الذاتي وتدمير الآخرين معه، وهو يعتبر الخاسر الراديكالي شخصاً لا يؤمن بالحلول

الوسيطي ولا بالمفاوضات؛ بل غرضه هو الانتحار الجماعي. وهكذا يتم إعلاء مغالطات تاريخية إلى مستوى النظرية؛ فحين نسقط خصائص حركات ظهرت في سياق عربي تاريخي وثقافي وسياسي مختلف -كان هدفها السيطرة على السلطة- على حركات مقاومة لا تطلب شيئاً غير التحرر من الاحتلال؛ فإننا نؤسس لما كان يُسمّىه الفيلسوف النقدي ثيودور أدورنو بـ"صناعة الوعي"؛ وهو يعني بذلك سياسة وسائل الإعلام في المجتمعات الغربية، خصوصاً التي ما برحت تمارس وصاية على هذه المجتمعات، وترسم طريقة تفكيرها، وتحدد مواقفها بشكل سابق.

إن الإعلام الغربي لا يوظف إلا المثقفين الذين يخدمون الأجندة السياسية الحاكمة؛ وذلك في حين يتم تغييب أصوات المثقفين النقديين؛ الذين يفضحون العالمية الغربية الخاطئة؛ التي تحتكر لنفسها شرعية استعمال العنف، وهي ليست في النهاية سوى تعبير عن قومية أو مصالح ضيقة. فنادرًا ما يظهر على شاشات التلفزيون في الغرب مثقفون مثل جاك دريدا؛ الذي كتب معلقًا على عمليات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول: "وإذا كان تعاطفي مع كل الضحايا هو بلا حدود؛ فذلك لأنه لا يتوقف فقط عند أولئك الذين قضوا نحبهم في 11 من سبتمبر/أيلول في الولايات المتحدة الأميركية؛ إن هذا هو تأويلي لما نسميه منذ أمس -حسب تعبير للبيت الأبيض- عدالة لا نهائية: أن لا يتبرأ المرء من أخطائه وأخطاء سياساته حتى في اللحظة التي يتوجب عليه أن يدفع ثمنًا رهيبًا يتجاوز كل المقاييس" (15).

إن الإعلام الغربي هو جزء من سرديّة متكاملة، تقوم على فكرة مركزية الغرب وأحقّيته بقيادة العالم؛ لكنها قيادة تحتكر الديمقراطية لنفسها، وتتعامل وفق مبادئ لا علاقة لها بالمبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان الكونية مع الشعوب الأخرى؛ بل إن مثقفًا كبيرًا مثل بيير بورديو ما يرحب يؤكد أن "عقلانية" المركز هي المنتجة والمسؤولة عن "الاعقليات" الأطراف (16).

خلاصة

نخلص في هذا البحث عن صورة الفلسطيني والقضية الفلسطينية في الإعلام الألماني إلى النتائج التالية:

- 1- للإعلام الألماني دور مؤثر في تشكيل الرأي العام، ويحتل التلفزيون في هذا السياق مكانة كبيرة، يضاف إليه الدور الذي تؤديه الجرائد الصفراء وعلى رأسها البيلد تسايتونغ؛ واسعة الانتشار في الأوساط الشعبية خصوصًا، وتتبنى فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية وصراع الشرق الأوسط الموقف الإسرائيلي بحذافيره.
- 2- إن الموقف من القضية الفلسطينية في الإعلام الألماني لا ينفصل عن موقفه من الإسلام والمسلمين؛ وهو في الغالب الأعم موقف سلبي؛ فالربط باستمرار بين صورة الفلسطيني والمقاومة الفلسطينية بالدين الإسلامي وما يرتكب باسمه من جرائم، يجعل المتلقي الألماني غير قادر على الفصل بين الفلسطيني والمسلم.
- 3- لا يتوانى الإعلام الألماني فيما يخص القضية الفلسطينية -وكما شاهدنا في العدوان الأخير على غزة- عن تزييف الصورة والتلاعب بها، مستفيدًا من جهل المتلقي بحيثيات الصراع وعدم اكتراثه أو رغبته في البحث عن الحقيقة.
- 4- إنه إعلام لا يتمتع باستقلالية؛ ولكنه يعيد إنتاج ما تنشره الصحف الأميركية عن الصراع في الشرق الأوسط، وهذا يرجع -أيضًا- إلى التبعية الألمانية للولايات المتحدة الأميركية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وعلى مستويات عدة، اقتصادية وسياسية وثقافية.

5- يعاني هذا الإعلام من إكراهات تاريخية تتمثل في عقدة الذنب تجاه اليهود، وهو ما ينعكس سلبيًا على تغطيته ويجردها من الموضوعية؛ فلا يتوانى هذا الإعلام عن إسكات كل صوت متشكك بروايته عبر استعمال ورقة معاداة السامية.

* د. محمد خلوq - أستاذ الدراسات السياسية والإسلامية بجامعة قطر

الهوامش

- (1) كاي حافظ، مجتمع الإعلام، مجتمع المعرفة: صورة الإسلام في الإعلام الألماني في فكر وفن: <http://www.goethe.de/ges/phi/prj/ffs/the/med/ar6425408.htm> تم الدخول على الرابط بتاريخ 24 من أكتوبر/تشرين الأول 2014.
- (2) اعتمد الباحث في قراءته على إحصائيات نشرتها مؤسسة IWV المختصة برصد مدى انتشار وسائل الإعلام الجماهيرية؛ التي تؤكد بشكل لا يدع مجالاً للشك ارتباط نسبة مبيعات الصحف اليومية إلى حدٍ كبير بموقفها وبالصورة التي تقدمها عن الإسلام والمسلمين.
- (3) كما فعل انسنسبيرغر في كتابه "دراسة حول الخاسر الراديكالي"، أو بيتر سلوتردايك في كتابه "ظلال سيناء".
- (4) Ach, Europa: Kleine Politische Schriften XI, 2008
- (5) Noam Chomsky, Top ten media manipulation strategies http://theinternationalcoalition.blogspot.com/2011/07/noam-chomsky-top-10-media-manipulation_08.html تم الدخول على الرابط بتاريخ 23 من أكتوبر/تشرين الأول 2014.
- (6) Kurt Sagartz, Meinungsmacht in Deutschland, Tagesspiegel 29/08/2013
- (7) Leon Scherfig, ManipulierteKriegsfotos: Bilder, die Luegen, Spiegel 14/08/2014
- (8) .Nahostberichterstattung in den Hauptnachrichten des deutschenFernsehens, Bundeszentrale fuerpolitischeBildung, 29/11/2012
- (9) Bettina Marx, Anti-israelisch - pro-israelisch - der Nahostkonflikt in den deutschenMedien, in: <http://www.lebenshaus-alb.de/magazin/004146.html> تم الدخول على الرابط بتاريخ 16 من أكتوبر/تشرين الأول 2014.
- (10) CtrinHilgendorf:Einzweifelhaftes Lob: Deutsche Medien auf der SeiteIsraels, In: <http://www.hintergrund.de/hintergrund/Page-3.html>. (10) <http://www.hintergrund.de/hintergrund/Page-3.html> 23/11/2012
- تم الدخول على الرابط بتاريخ 14 من أكتوبر/تشرين الأول 2014.
- (11) ريم الحرمي، الإعلام الغربي يفتقد الحياد في القضية الفلسطينية، الراية، 22 من يوليو/تموز 2014.
- (12) Ursula Götz, Der NahostkonfliktalsMedienkrieg, in: <https://www.planet-schule.de/wissenspool/nahostkonflikt/inhalt/hintergrund/der-nahostkonflikt-als-medienkrieg.html> تم الدخول على الرابط بتاريخ 14 من أكتوبر/تشرين الأول 2014.
- (13) Florian Roetzer, Kritik des Fernsehens, in: <http://www.heise.de/tp/artikel/2/2309/1.html> تم الدخول على الرابط بتاريخ 14 من أكتوبر/تشرين الأول 2014.
- (14) Das Nahost - und Islambild in der deutschenPresse II, 2002, 156
- (15) La raison du plus fort, Le monde diplomatique, janvier 2003
- (16) .Contre-feux, tome 1: Propos pour servir à la résistance contrel'invasionNéo-libérale, Poche, 1998

انتهى